النتاج الجديد

مي في حياتها المضطربة

تأليف جميل جبر

دار بيروت للطباعة والنشر – ١٧٠ ص

•

شخصيــــة مي شخصية جذّابــة جبلت من المتناقضات وكانت كالحياة ، « مشكلة المشاكل » التي حاولت عبثاً ان تحلها. كانت خليطاً غريباً ، «يمازج فيها النور الظلام ولا يزيله» ، جاءت الى هذا الوجود ، ومثلها جاء جبران ، في عصر لم يكن مستعداً بعد لاستقبالها ، فغريبة جاءت وغريبة رحلت .

ثارت على الحياة فغدت ضحية الحياة ، وثارت على التقاليد فوقعت صرعى امام حصونها المنيعة. ونالت اكثر ما تمنت ، بيد انها ظلت ظمأى لم يبرد غليلها ما حظيت به لأنها ما وصلت الى قمة حتى اعتبرتها نقطة انطلاق جديدة الى قمة اعلى منها تعد العدة لاقتحامها فلا تبلغها حتى ترى انها لا تزال في اول الطريق ، وان المحجة لا تزال نائية ، وبلوغها عسير .

رافق جميل جبر مياً في مختلف اطوار حياتها ، فارانا اياها طالبة كئيبة لا تعرف سبب كآبتها ، « انيسة العشرة ، رضيّة الخلق ، حادة الذكاء ، ولكنها سريعة التأثر عزيزة النفس ، تعيش في الواقع مرة ، ومرات في غمرة الاحلام » .

وانتقل معها الى مصر ، مصوراً بدقة تطوراتها النفسية ، وقد قويت شخصيتها وازدادت ثورتهـــا « تأبى الخضوع وتبغض الانضباط.. وترغب ان تترك اثراً منها حيثما حلت » ، لا تستقر على حال ، فتمقت اليوم ما اشتهته بالأمس ؛ ويدفعها حبهـــا للمعرفة الى المطالعة فتنكب على « آثار اخوانها بالتمرد والحيرة والقلق » ثم تشق لها طريقاً الى الشهرة بين كبار مفكري مصر وادبائها ورجالاتها ، فيصبح « اسمها على كل شفة في اوساط القاهرة الثقافية . وتظل غير راضية ، دائمة القلق والحـــيرة فتلجأ الى عذوبة الموسيقى ، او الى اظلال لبنان الرطبة وتظل كئيبة ، والكآبة ، كما تقول هي : « خاتمة شعور الانسان إزاء الجمال والقباحة ، والخير والشر ... »

وتتعرف الى جبران من خلال كتبه فتنشأ بينهـــا وبينه مراسلات دامت ما دام في قيد الحياة ، وتفتح « حلقة ادبية » يرتادها رجال الفكر في مصر ، فتصبح الندوة الادبية الأولى في الشرق ، وتحمل مع هدى شعراوي لواء النضال في سبيل تحرير المرأة العربية ، حياة مفعمة جداً ونشاطاً وانتاجاً قيماً ، فأضاعت ، على طريق رغائبها ، كنز شبابها النضر ، ولما عادت الى نفسها حوالي سن الأربعين ، لم تجد امانيهـــا ، ولم تجد شبابها ... ولعلّ ذلك قد كان لأن مياً لم تراع حقوق الطبيعة ، فانتقمت منها الطبيعة شر انتقام .

وها هو الخريف الكئيب ، وها هي الهموم والمصـــائب تتوالى : اين ابوهـــا وامهـــا ، اين صرّوف واسماعيل وولي الدين ؟ بل اين جبران رفيق روحها ... وها هي تعتزل الحياة وتعيش ، بعد اسفار وتنقلات بين انكلترا وإيطاليا وغيرهمـا « عيشة النسّاك بين احلامها المريضة وتصوّراتها الغريبة » ، ثم تنتابها ثورات من الجنون فتدخل « العصفورية » وتخرج منهـا الى المستشفى ثم تتركه لتعود الى عزلتها في بيروت ثم في القاهرة حيث تلاقي حتفها وحيدة غريبه .

هذه هي حياة مي المضطربة كما رسمها لنا جميل جبر في كتابه الاخير . وقد اودعه من التحليل النفساني الدقيق ما لم نعهده قبل ذلك في أدب السير العربي ، وهو في كل ما كتب لم ينهــل الأخبار إلا من ينابيعها ، فيعود الى مؤلفات مي واعترافاتهـا وإلى شهادات من عرفوها فيستقصي منهم الخبر الصحيح عنها ، واذا ما استنتج وعلـّل ، فانما يفعل ذلك بالاستناد الى الواقع .

وكان يخشى ان يقوده الموضوع الشـــذوذ الخيالي ، فظل اميناً على الحقيقة ، حريصاً على الا ّ يخرج عن سبيل التأريخ ، وظهر في كتابه مؤرخاً ترتاح إلى ما يسرده عليك من وقائع ، ومحللاً لبقاً تغلغل الى اعماق شخصية مي المعقـّدة المضطربة فأظهر فيها مواطن العظمة دون ان يسهو عن مواطن الضعف فيها .

وقد كنا نود لو انـــه عرض للأديبة والكاتبة والمفكرة بقدر ما عرض للمرأة ولو انه تناول آراءها بالتحليل والنقد ، كما تناول شخصيتها . ولعله لم يفعل ذلك في كتابه هذا ليخصص له سفراً مستقلاً يتحفنا به في مستقبل نتمنى ان يكون قريباً .

خليل الجر

اشياء صغيرة

مجموعة قصص للآنسة سميره عزام

دار العلم للملايين ، بيروت — ٩٦ ص

ينهض فنّ الآنسة سميرة عزام ، في هذه المجموعة القصصية ، على قوة الايحاء في خلق الجو النفسي . وتبلغ المؤلفة ، في عدد من الأقاصيص ، درجةً رفيعة في التحليل تشهد بان موهبتها القصصية عظيمة الامكانيات .

ففي اقصوصة «الاشياء الصغيرة» مثلاً ، تبدو الحركة النفسية شديدة الغنى بما تنطوي عليه من لفتات ولمسات . وهي قصة فتاة يكمن في قلبها حسٌ عاطفيّ مرهف ، ولكنه مكبوت محروم ؛ حتى اذا اتيحت له اليقظة استشعرت صاحبته مذاقاً جديداً للحياة ونكهة لم تعرفهامن قبل . وليس هذا الذي تحسّه الفتاة مشاعر واضحة صافية ، بل هي أحاسيس هينة غامضة ، فيها القلق والرضى جميعاً : لقاء عابرفي سيارة ، وجلسة فيسينما ، ودفء نظرة ، وتلامس كفين ، وافترار بسمه محببة ، ووقع اقدام على الحشائش ، وتجاذب شفاه رقيقة : دنيا من الأعماق تضطرم في روح حنّانة . وإن الفتاة لتتساءل بعد : هل ذهبت بعيداً ، هيالتي كانت حياتها خالية ، فبدأت تدفأ وتشقّ لحياتها درباً جديداً يهزأ بمواضعات الناس ؟

ومثل هذا الجو النفسي تخلقه ايضاً اقصوصة « في المفكرة » التي تصوّر — بتوتر مرهف — شعوراً غامراً بالوحدة والوحشة والحرمان العاطفي ؛ وهذا الشعور يتجلّى في عددٍ منعلامات الاستفهام تخطّها البطلة في مفكرة اشترتها اول العام ، وظلت هذه العلامات تحنّ ابداً الى الجواب . وينفُق العام ، فتدير ايامه في ذهنها ، فاذا هو يوم واحد متشابه كئيب ، يزيده جهوماً صممرجل تعمل عنده،وهو لايتحرك كأنما هولا يعيش. ولكن نفحة من انسانية تشعّ تلك الليلة في عيني الرجل ، فيدعوها الى سهرة العام الجديد ، وفي ضميره انه قد ينجح في حملها على ان تخطّ شيئاً فشيئاً في المفكرة . هنا تنتهي القصة ، ولكن ما توحيه لن ينتهي . إن المفكرة ستنبض دون ريب بحركة جديدة،ستمحّي علامات الاستفهام منها واحدة واحدة، وستمتليء صفحاتها رويداً بكلمات اثيرة واعدة .

على ان اقاصيص اخرى تتميز بنزعة انسانية واضحة كـ« بائع صحف » و « نافخ الدواليب » وأولاهما أقرب الى ان تكون صورة ، لا قصة ، والثانية تثير قضية الظلم الاجتماعي وكيف يواجهه المظلومون إثارة هيّنة لا تفسدها المناقشة ، ولذلك نراها تخلّف لدى القاريء جواً من التفكير والتأمل .

وتتلبس هذه النزعة الانسانية في « امومة خيّرة » و « ماما » إحساس الامومة الغامر، خاصّة كل انثى ؛ وإن المؤلفةلتدرك في تصوير نزعات الامومة غاية بعيدة، يرفدها فيذلكاسلوبٌ حيّ مشرقفيه اختيار وصناعة،ولا أقول تصنّع،وعصبيةوموسيقية.

ولكن البناء التركيبي لهذه القصة الاخيرة « ماما » يشكو ضعفاً واضحاً : فهي قصة في رسالة يبعث بها رجلٌ الى زوجته التي آثر ان يطلّقها حين عجز عن ان يقدّم لها ولداً سليماً ، ثم سافر الى الخارج ثلاث سنوات حتى تزوجت ، وهذا ما كان يود ان يتيحه لها ، رغبةً منه في ان تستجيب لنداء الامومة في ذاتها ؛ وقد رزقت المرأة ولداً ، فأرسل هو يهنئها بالطفل الذي غلبه « بكلمة منغومة » . ومنشأ الضعف في القصة ان الزوج يروي لزوجته السابقة حكايتها كلها بتفاصيلها الوافية ، مع ان الزوجة تعرف هذه الحكاية ولا حاجة بها اليها ، وهذا ما يُشعر القاريء بالتصنّع في تركيب القصة . وقدكان خيراً للآنسة عزام ان تجعل الزوج يرسل هذه الرسالة — مثلاً — الى صديق له يسأل عن سرّ سفره الى الخارج ، فيروي له القصة بهذه التفاصيل.

اما اللون المحلي ، فان المؤلفة تنجح في إبرازه في بعض اقاصيص هذه المجموعة ، ولا سيا في « الى حين » التي تصوّر مسلك عمتين عانسين تجاه عاطفة جديدة شدّت ابنة اخيهما الى ابن الجيران . والمحلية ظاهرة في التفكير والتعبير جميعاً ، واحسب ان هذه القصة متأثرة بأقاصيص مارون عبود . على ان هذا اللون يمتقع حين تقصر الكاتبة فنّها على تصوير آلي سريع ، كما في قصتي « الشيخ مبروك » و « زواج العمة » وقصارى ما فيهما طرفة أو نكتة تثيران الابتسام .

بقيت لنا ملاحظة اخيرة ، تطفر الى الذهن بعد استعراض الجو العام لهذه الأقاصيص ، وهي ان القاريء لا يكاد يجد شيئاً من وحي المجتمع النسائي العربي الذي تنتمي اليه المؤلفة . ونحن لا نقول ذلك بسبب من رغبتنا في تمييز الجنسين بالمجتمع، ولكننا نحسب ان الآنسة عزام ، وهي القصاصة الموهوبة ، أقدر من الرجال على تصوير الاجواء النسائية ، ونسألها ان تنخرط في جو « الفتاة » العربية ، وما تلاقيه في هذا الجو من مشكلات اجتماعية هي خير مادة للقصة العربية المعاصرة ، فضلاً عن انها ، إذ تعرض هذه المشكلات ، بالاطار الفني طبعاً ، فانما تُلحّ على التماس الحلول لها ، وبذلك يشارك الادب في خلق المجتمع العربي الأفضل ، وهذه هي اليوم غايتنا الكبرى .

سهيل ادريس

« الحيّ اللاتينيّ » أيضاً ..

اثارت رواية « الحي اللاتيني » اهتماماً كبيراً في الاوساط الادبية لم تشهد مثله الا الآثار التي سجّلت نقطة تحوّل جديدة في تطوّر ادبنا العربي الحديث . وقد تناول الرواية حتى الآن – ولما تمض على صدورها ثلاثة اشهر – زهاء عشرين كاتباً من مختلف الاقطار العربية كانت آراء معظمهم في صالحها . غير ان بعض الكتّاب لم يفهموا الرواية أو لم يجدوا فيها الا الجانب الجنسي. وقد هالهم الحديث عن مثل هذا الجانب، فوجدوا في ذلك خروجاً على مبدأ الالتزام الذي تأخذ به « الآداب » ورئيس تحريرها ، مؤلف « الحي اللاتيني » . ونحن نعتقد ان ثورة هؤلاء على الرواية ، وهم نفرٌ قليل، هي ثورة لا شعورية على ما في نفوسهم من حياة جنسية يسودها الصراع بين المحافظة والتحرر، فكأن الرواية كانت بمثابة مثير لأضطراب يودّون ان يتابعوا ابداً كبته في نفوسهم ، وافتضاح لمشكلة نفسية يحبّون دائماً ان يطمسوها ، وهذا ما يدعوه علماء النفس بـ Projection . وهذه الظاهرة ، في رأينا ، هي اكبر دليل على صدق الحاجة الى مثل هذه الرواية التي تفصح بالدرجة الاولى عن مخاوف الشباب العربي ازاء المشكلة الجنسية واساءتهم لفهمها . ونحن نؤمن بان معالجة هذه القضية ، وقد حاولت « الحي اللاتيني » معالجتها ، من صميم رسالتنا الالتزامية .

هذا وقد نشرت « الآداب » في العدد السابق مقالين في نقد الرواية بقلم الاستاذين يوسف الشاروني واحمد كمال زكي. ووردتها هذا الشهر عدة مقالات في الثناء على الرواية او في تجريحهـــا ، فلم يكن لها بدٌ من ان تختار مقالين اولهما بقلم الاستاذ عبد الله عبد الدائم ، استاذ التربية وعلم النفس في الجامعة السورية ، وثانيهما بقلم الاستاذ عيسى الناعوري، صاحب الزميلة « القلم الجديد » المحتجبة . وسيرى القراء ان احدهمـا يكاد يناقض الآخر مناقضة تامة في فهمـه لرواية « الحي اللاتيني » ، ونحن نترك للقراء مناقشة الرأيين جميعاً .

« الآداب »

مقال الأستاذ عبدالله عبدالدائم

« عندما أحدثك عن نفسي أحدثك عن نفسك ،
وغير رشيد من ظن انني لست أنت » .

كانما يذكر هذا البيت الذي رد به « فيكتور هوغو » مزاعم الادباء الكلاسيكيين ، وعلى رأسهم « بوالو » Boileau مشرّع الشعر الكلاسيكي . وكلنـــا يذكر الصراع الذي ساقه معهم في مقدمته الشهيرة لرواية « كرومويل » مبيناً خاصة تهافت المبدأ الذي استقوه من « مونتيني » Montaigne ، وهو قوله « إن حديث الكاتب عن نفسه حديث منفر » .

والحق ان نسغاً من فورة الحياة يجري في كل واحد منا ، وهذا النسغ اذا عرفنا الكشف عنه واستجلاءه ، استطعنا ان ننقل الى الآخرين دفقة الحياة ومعناها ، وان نطلعهم على ما في نفوسهم منها . والكاتب البارع هـــو من عاش جانباً من هذا النسغ عيشاً عميقاً ، حتى افتضه وكشف أمره لنفسه وللآخرين . والذي يشعر به القارىء لكبار المؤلفات ، ان اصحابها قـــد رأوا وابصروا : رأوا الحياة إذ عانوها ، وجرت فيهم يسيرة هينة، وسالت من كتاباتهم عفواً ودون ما عنت . إنه ليشعر ان لسان الحياة هو الذي ينطق بلسانهم، وانهم لايعدون ان يكونوا ناقلين امناء لما يلهمه ذلك اللسان ويوحيه، بل يشعر ان الالفاظ والسبك والفن الروائي تكاد كلها تصهر وتزول في حرارة ما تفضي به الحياة التي يعبرون عنها ، وانها لا تعود وسائل واساليب مستقلة لنقل معاني الحياة وهمساتها ، وانما تغدو جزءاً منها ونتائج عادية طبيعية تتأتى طائعة لمن اتصل بهذه المعاني وامتص تلك الهمسات . او ليس هذا الشعور هو الذي يراودنا مثلاً عندما نقرأ روايات لدوستويفسكي وتولستوي وشكسبير وغـــيرهم من اصحاب التجارب الانسانية العميقة ؟

ومن هنا كانت الروايات التي يتحدث فيها المؤلفون عن انفسهم وحياتهم الخاصة اقوى مـــا يكتبون في اكثر الاحيان . فهم في مثل هذه الروايات ينقلون تجربة حقيقية عانوها بسائر اعصابهم ، وهم بهذا ينقلون لنا جزءاً من الحياة الحقيقية، الحياة العامرة– انهم فيها يصلون الى مقام الكشف، الكشف عن الحياة ، بل الى مقام الاتحاد بها ، ان اردنا ان نتبنى بعض تعابـــير المتصوفة . فهم قد صارعوا وارتقوا في معارج الوصول ، وعرفوا طعوماً حقيقية ؛ وما عليهم بعد ذلك إلا أن ينشروا بضاعتهم هذه في امانة وبساطة ويسر . وهذا هو مصدر القوة التي نجدها في كتاب مثل « كتاب صديقي » لأناتـــول فرانس ، أو « اعترافات فتى العصر » لموسيه ، أو « الاعترافات » للقديس اوغسطين ، او « الأيام » لطه حسين ،

النتاج الجديد

أو « قدر يلهو » لشكيب الجابري ، أو « الحي اللاتيني » لسهيل إدريس .

إن شيئاً واحداً تتطلبه الحياة من الانسان لتخلص له وتمنحه عطاياها ، هو أن يصدق في معرفتها ، وألا يتحدث عن جوانب منها لم يعرفها ولم يعانها وأي حديث عن أي جانب عرفه المرء حقاً حديث ينتقل سريعا إلى نفوس السامعين أو القارئين ، ويجدون فيه أحاسيسهم وذواتهم. بل أي معرفة لجانب صغير من الحياة ، اذا كانت معرفة عميقة حقا ، لا بد أن توصل صاحبها إلى الإطلال منها على بعض الجوانب الأخرى ، بل لا بد أن توصل صاحبها إلى أن يضع يده على قلب مشكلة الوجود وجوهره ، وعند ذلك يصل في كتابته وفكره إلى شأو لا يمنحه إياه التحليل المنطقي ، ويصيب من الحقائق ما لا يعيه هو تماماً ، اذ تكون الحياة هاديه ومحرك فنه .. ومن هنا نرى كثيراً من الفنانين والمؤلفين الكبار يجهلون هم انفسهم ما تحتويه مؤلفاتهم من معاني واجـواء .

ولسنا نزعم ان كتاب « الحي اللاتيني » قد بلغ هذا الشأو تماماً ، غيراننا نجد فيه محاولة جدية للسير في هذه السبيل ، وخطوة كبرى نحو بلوغ هـذه الرتبة . إن فيه تجربة ، وإن صاحبه لم يرد ان يحدثنا الا عما جربه وعاناه حقاً ، وجرب أن ينقل الينا أحاسيسه وانطباعاته دون ما تورية ، ودون ما تشذيب ، ووصف هذه الاحاسيس بالتفاهة حيث ينبغي ، وحمل عليها حيث يجب ، وصدق معها ومع نفسه في اكثر الأحيان ..

فهو شاب عربي لم ينكر مجتمعه مدعياً ، ككثيرين غيره ، ان في وسعه بيسر أن يلبس ثوب الغرب ويقتحم تياره دون ما توجس وخيفة. ولم ينكر ما خلفه هذا المجتمع فيه من رواسب الحرمان الجنسي والقلق والمحافظة والخوف من المجهول ، بل الخوف من الذات .. إنه لم ينكر أنه ، ككل شاب عربي مخلص ، ما يزال يتلمس ذاته ووجوده ، ويبحث حائراً عن نواته ورسالته .. ولم يدع انه وصل الى معرفة هذا الوجود وتلك الرسالة، ولو ادعى لأنكرنا عليه ذلك .. إنه ككل عربي يعيش في المرحلة الحالية من تاريخنا ، يفتقـد وجوده الأصيل ويشعر ان ثمة شيئاً ، ثمة رسالة ومثلاً أعلى ، تضيء له من بعيد وتومض ، ويقبض عليها في بعض لحظاته ولمعات نفسه ، ولكنها ما تلبث حتى تفر من قبضته ، مخلفة وراءها سراباً . إنه واحد من ذلك الجيل المعذب القلق الذي يشكو الحيرة ، ولم يستقر بعد على قيم حقيقية توجه حياتـه وترشد سبيل سلوكه . ولكنه ليس ، كبعض هذا الجيل ، ممن استخذى واستسلم وضاع مع حيرته ؛ وانما هو ، كطليعة واعية منه ، يحاول ان يعرف ويصل ويبحث ، ويرى الامور بعين الملهم صاحب الرسالة ، وان كانت رسالته غير واضحة المعالم بعد. والحق ، ان الامم تعرف في بعض اطوار حياتها مراحل يكون فيها القلق الباحث عن حل هو وحـده الموقف الصادق الصحيح ، ويكون فيها ادعاء الوصول الى حل وطمأنينـة كذباً وزيفاً أو مواتاً ومسكنة . ومثل هذه المرحلة هي التي تعرفها بلادنا اليوم ... ومثل ذلك الموقف القلق هو الذي يقفه المؤلف في روايته .

ويتجلى هذا القلق الباحث لدى المؤلف عن طريق اتصاله بالغرب . انه يريد ان يفر من نفسه الى عالم يعتقد ان فيه شفاء أوصابه ... ويتساءل هل هو بالغ هذه الغاية ... ويسأل ما هو الشفاء الذي سيلقاه ، وما هو الداء الذي يفر منه ويتلمس له الدواء ؟ والحق ، انه لايعطي جواباً على هذين الأمرين في روايته ، فهو لايعرف الداء . وهذا وجه من اوجه القلق التي يعيشها الشاب العربي في بلادنا : إنه يفتقد شيئاً لايعرفه تماماً ، ويشكو ألماً لا يتبين موضعه . وخطأ ان نقول ان الداء الذي يشكو منه بطل الرواية هو الحرمان الجنسي ... نعم انه يصرح لنا في بداية الرواية بأنه يبتغي المرأة في رحلته الجديدة الى الغرب ، ولكن من واجبنا ان نـدرك من سياق حديثه ان هذه الناحية جزء من قلق عام لايعرف ان يصفه ، لم يتضح له فيه غير هذا الجانب . أفلا يفر المرء في بعض الأحيان الى الحلول الجنسية حين لا يعرف حلاً آخر ؟ أوليست التجربة الجنسية مفتاح التعرف على النفس وخبر اغوار الذات ؟ انها لدى المؤلف وسيلة يتلمس عن طريقها ذاته ويخز بها وجوده ليشعر به ويعرفه . افلا يشعر المؤلف انه منعدم الهوية في كثير من الأحيان، « يعجزه ان يرسم لنفسه صورة متميزة الأبعاد واضحة المعالم» ص ٤ ؟ أفلا يتمثل كيانه « شيئاً فارغاً يعوزه الامتلاء والكثافة ، صدفـة جوفاء ملقاة على رمل شاطيء ، عوداً فارغاً من القش تتقاذفه ، بلا هوادة ، مياه نهر صاخب » ص ٤ ؟ إنه ليحدثنا في بعض اجزاء روايته كيف يحاول ان يفيق من هذه الغيبوبة الوجودية عن طريق المرأة ؛ ويصف لنا حاله عندما طلبت اليه رفيقة صديقه ، بعد ان ودعاه في المطار وامتطيا السيارة معاً ان يقدم لها سيكارة ؛ ويحدثنا في كثير من البراعـة عن شعوره بشخصيته وكيانه على اثر هذا الطلب التافه ، بعد الحيرة والخجل والاحجام :

« وسقط كل الخوف والهيبة والتردد والاضطراب ، سقطت كلهـا عن كاهله . بل هو بدأ يشعر انه يدوسها كلها بقدمه . اكان حقاً بحاجة الى ان تطلب منه امرأة سيكارة او ان تقترح عليه دخول مقهى ، حتى يشعر بشخصه، حتى يشعر بانه انسان حي ، انسان حر ؟ يخيل اليه الآن ، بل هو موقن ، انه مالك منذ هذه اللحظة زمام الموقف ، وانه منتصر على جميع الظروف التي سيواجهها » ص ٤٠ .

أفلا نجد في هذا تعبيراً عن حقيقة يعرفهـا كل انسان ويعرفها الانسان العربي خاصة، وهي انه يبدأ بالتعرف على وجوده عن طريق المرأة ، وانها وسيلة لتحطيم كثير من خجله واضطرابه وغيرهما من الصفات التي لا تكشف الا عن خرق في ادراك معنى الحياة ؟ افلا يتخلص مثل هـذا الشاب من « عمر » نفسه وتثاقلها وارتباكها ، عن طريق مثل هذه التجربة ؟

إن المؤلف ليبرع في وصف اثر هذا « الكاشف » ، نعني المرأة ، في تفتيح نفسه واعادة الثقة اليها والقوة ؛ ويبين لنا خير بيان كيف اطل من هذه التجربة ، تجربة المرأة ، على آفاق كثيرة في الحياة . بل كيف نقلته الى ما قد يبدو نقيضها ، نعني الفكرة القومية . والحق ان المرأة كانت له اولاً وآخراً وسيلة للكشف عن ذاته ورسالته وحياته في امته ... انهـا وسيلة ولم تكن غاية ... انها وسيـلة لتفتيح نفسه وإغنائها وسبر غورها والتأكد منها ، وانها وسيلة بعد ذلك الى اثارة قلق مبدع ومشكلات جديدة لها صلة بقلب حياته القومية .

انه اذ تفتحت نفسه ، تفتح لحياته ومشكلات بلاده . وهو إذ غدا انساناً سوياً لا يلجمه الجهل بالمرأة ويشوهه ، يبحث ككل انسان سوي عن سر وجوده ومعنى رسالته وغاية مطافه . بل ان مشاعر الصداقة نفسها قد ارهفت لديه وغدت ذات لون خاص عن طريق هذه التجربة :

« كان على يقين من ان صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة يوم يلتقي مثله بفتاة تطلق مشاعره الحبيسة من عقالهـا وترد احاسيسه الى موضعها الطبيعي من قلبه وروحه » ص ٧٢

وكل من عرف شيئاً عن قوانين الحياة النفسية ، يفهم تمام الفهم معنى هذه التجربة وصلتها بأعمق معاني الحياة الاجتماعية والقومية .. اولم يذهب بعض الباحثين الى القول بأن التجربة الجنسية تصل المرء بمنبع الوجود وجوهره؟ وان نحن آثرنا الا نذهب هذا المذهب البعيد ، فلن نستطيع ان ننكر ان محبة الانسانية ومحبة الحياة القومية والاجتماعية تتأتى غالبـاً للذين ارضوا

نفوسهم اولاً واشبعوها . ولولا قلة يعرفون ان يخلقوا من الحرمان رياً ، ومن الكبت تصميداً وإبداعاً، ومن النار برداً،لجعلنا هذا القول عاماً شاملاً.

ويزيد في القيمة الاجتماعية لهذه التجربة لدى المؤلف انه لا يقبل عليهـــا منطلقاً من رواسب مجتمعـــه ، بل يقتحمها وهو محمل بروح هذا المجتمع كلها وتقاليده ، مثقل بنظرات أمه وأقاربه . وهو ههنا ايضاً يلمس جانباً حياً من تجارب الفرد العربي ، اذ يصف لنا الصراع الباطني الذي يقوم في نفسه بين جانبين يتجاذبانه : جانب يدعوه الى أن يحيا حياة حرة مليئة بالانطلاق من اسر التقاليد ، وجانب يشده الى مجتمعـــه وتقاليده وعاداته . وما نظن شاباً عربياً لم يعرف هذا التمزق والصراع . وليست قيمة هذا التمزق في الواقع في انه صراع بين جيلين ، كما يصفونه ، ونزاع بين عقليتين : بل قيمته في انه صراع بين نزعتين كامنتين في اعماق الفرد الواحد . فالفرد الواحد من جيلنا الجديد يملك هذين التيارين في قرارة نفسه ، يشدانه ويتنازعانه ، مهما يدّع . وهو اذ يصارع لا يصارع محافظة غيره بتحرره هو ، وانما يصارع محافظتههو بتحرره هو ايضاً...ان في نفسه ازدواجاً : فهو متحرر اعمق حدود التحرر احياناً ، ولكنه في الوقت نفسه محافظ كأقوى ما تكون المحافظة ... بل إن تحرره العنيف الذي يظهر صاخباً احياناً ، مـــا هو إلا تمويه يوهم نفسه عن طريقه انه حر منطلق من إسار المحافظة. أليست بعض الاندفاعات العنيفة التي تتبدى احياناً بمظهر الشجاعة والجرأة ، تعبيراً عن جبن وخوف؟ أليست بعض الشجاعة،كما يقولون ، فراراً الى امام؟او ليست فن إخفاء الخوف ايضاً؟

انها حقاً مشكلة الشاب العربي تلك المشكلة التي يتابعها المؤلف في الرواية، مشكلة هذا الصراع بين المحافظة والتحرر الحالّين معاً في قرارات النفوس ، وفي قرارات اكثرها ادعاء للمحافظة او ادعاء للتحرر . واقسى المشاعر هي المشاعر المزدوجة المعنى ، واقدر الانفعالات على اقامة الاضطراب في قلب الحياة النفسية هي تلـك التي تحتوي في آن واحد على حدين وقيمتين . أفلا تأتي قسوة عقدة « أوديب » مثلاً ، التي يحدثنا عنها علماء التحليل النفسي ، من هذا الازدواج فيها ومن اشتمالها على عنصر البغضاء والمحبة معاً لشخص واحد هو احد الابوين ؟ ومثلها عاطفةالحسدوالغيرة وكثير من العواطف الانسانية.

وهكذا نرى المؤلف يحدثنا عن ذلك الشعور بالإثم والخطيئة الذي يراود الفرد في مجتمعنا عندما يقدم على تجربة جنسية، وعن القلق الذي يعتريه حيالها. انه حين اغلق الباب خلف المرأة الاولى التي اتصل بها «ارسل زفرة طويلة» وكان « يشعر بضيق لا يدرك له تعليلا الا أنه غير راض عن نفسه. وعصفت به الحيرة ، فلم يدر ما الذي ينبغي ان يفعله الآن... » ص ٦٤. وهكذا نراه يحاول ، بنزعة العربي وروحه ، ان يرقى من هذه التجربة الجسدية الى تجربة تمتزج فيها الروح بالجسد، ليلقى التبرير « العربي » ، ان شئنا، لمثل هذه التجارب. « أليس هو فتى من الشرق العربي ؟ انها رواسب اجيال طويلة من الحرمان والكبت والخوف من المرأة تشده الى ماضيه وتقاليده » ص ٩٨ ولذلك يعرف « جانـــبين » ويحب « روحها عبر جسدها ، وجسدها عبر روحها » ص ٢٢٥ . ويحب فيها طهرها وتجربتها الفاشلة مع خطيبها وفرارها من اهلها وألمها الذي تضغه في داخلها؛ويروقه هذا الوضع الخاسر الذي تجره معها ، كأنما يريد ان يظهر امام نفسه بمظهر المنقذ المضحي ، وكأنما يريد ان يمنح تجربته الجديدة هذه معنى روحياً فيه عبق المثل العليا التي تراوده :

« وهل تنوي ان تتخذ من شخص جانين مطهراً تتحلل فيه من اوزارك، وتنفض عنده آثامك ؟ اتدري حقاً لماذا تحبها ان كنت حقاً تحبها ؟ اشفقة وعطفاً على تلك الفتاة التي حطمتها مأساتها الغرامية ؟ ام اعجاباً بهذه الفتاة اللامعة ذكاء وحساً وبصيرة ؟ »

اجل ، انه يبحث فيها ايضاً عن ذلك المجهول، مجهول الشاب العربي القلق التواق الى القيم الروحية ، الذي يأبى ان يرى في الأشيـــاء حمأة المادة ورجس الطين ... انه تواق الى اقتطاف معان غير معاني الجسد وغير معاني اللذة ... انه يريد ان يرى وجوده في مرآة هـــذه الفتاة ، وان يعرف واجبه الاجتماعي من خلال متعته الفردية . ولهذا يمنح صديقه « فؤاد » قيمة خاصة ما تني تنمو وتشتد ، إذ يحاول هذا الصديق ان يعجل لديه هذا الربط بين تجربة الفرد وتجربة الجماعة ، بين متعة الخلوة ومتعة النفس التواقة الى المثل الأعلى القومي ، ويشعره بان « حياته ينبغي ان تضطلع بتبعة وتتحمل مسئولية وتسمى الى غاية » ص ١٤١ ، ويؤكد عنده فكرة القصد والنية في كل شيء ، مبيناً له ما تبينه الفلسفات الحديثة من ان وجود المرء لا يتحقق إلا ضمن مسئولية وغاية ، جاعلاً من مسئولية العمل القومي القصد الأول والموجه الكبير الذي يهب للحياة معنى وللسلوك مفتاحاً واعياً . انه يحاول ان يخرجه من « بحران وجوده »، وان يلقي في نفسه تلك الجـــذوة التي تضطرم بها اعماقه ، «فتلقي على نظرته الى الحياة ضوءاً هادياً يربط الاحداث فيما بينها ، ويتوجه نحو غاية واحدة وهي ... خدمة القضية القومية في بلاد العروبة كلها » ص ١٦٤ .

ولكن رحلته هذه في سبيل الوصول الى الطمأنينة وايجاد الحل لبحرانه، تخفق كما تخفق كثير من رحلات الشباب العربي في طريق البحث عن الرسالة المرجوة منهم . فهو ما يلبث في كثير من الأحيان ، حين يفارق صديقـــه « فؤاد » ان « يعاوده الشعور بالعوم والطفو ... وان يلمس بيديه هذا الفراغ الذي يستخفه... » بل ما يلبث ان يخفق في إتمام ذلك النسيج الذي حاك اول خيوطه ، نسيج صلته مع « جانين » وما كان يعلقه على هذه الصلة من انقلاب عميق في نفسه وقيمه ونظرته الى العالم ... فاذا به يعود متثاقلا الى الجانب المحافظ من نفسه ، ويصغي لآراء امه ومجتمعه من حوله هاجراً « جانين » ، محاولاً ان يخلع على هذا العمل المحافظ وجهاً متحرراً إذ يفسر انصرافه عنها وعزوفه عن الزواج بها تفسيراً قومياً ، يستقيه ايضاً من آراء صديقه فؤاد . وبهذا يبرز الصراع الداخلي الذي تحدثنا عنه ، الصراع بين الروح المحافظة والروح المجددة الثاويتين في اعماق كل منا ، شديداً عنيفاً ، ولا سيما بعد ان تمده افكار « فؤاد » التي تصلح ان تستثمر ، عند الاقتضاء ، لتبرير بعض المواقف المحافظة .

ولعل خير ما في الرواية هو هذا التراجع والضعف والعودة الى القلق والحيرة ، بعد مراحل اوهمت بالتغلب عليها . ولا نرى نحن في هذه العودة الى نقطة البداية نقيصة في الرواية وإنما نرى فيها احد جوانب القوة . ذلك ان النغم الاساسي الموجه للرواية ، في رأينا ، هو هذا القلق الذي يقبع فيه الشاب العربي ، وهذا التلمس الفاشل الذي ينطلق اليه باحثاً عن معنى وجوده، وهذه الواحات التي تتراءى له في الطريق فيحسبها ماء ويظن انها ضالتـــه ورسالته ، فاذا هي آل وسراب ... بل اللحن الأصيل الذي تردده نفس هذا الشاب هو ضرب من العود الأبدي Retour éternel إذ يبدأ ويمضي ويشمر للبحث ويتوهم انه وصل ، ثم ما يلبث حتى يرى نفسه في مكانه لم يبرحه ، وفي نقطة البداية لم يفارقها ...

« بل الآن نبدأ يا امي » ، بهذا تنتهي الرواية !

وفي هذا القلق الذي يواجه الشاب العربي البشرى كلها والأمل كله ... انه ينبيء عن انه بدأ يسير في الطريق السوية . وان اعترافه بفراغه وجهله وفقدان رسالته هو بداية علمه ... انه اخذ يرى المشكلة واخذ يطرحها على بساط البحث ، وطرح المشكلة ، كما يقول « بيكون » نصف العلم ...

« لا يا عزيزي . فأنا احسب انك على خطأ . انهم لا يوحون بالنفور.

وانت لن تنفر منهم اذا ادركت انهم شبان قلقون ، يبحثون عن انفسهم . اننا جميعاً نحن الشبان العرب ، ضائعون يفتشون عن ذواتهم . ولا بد ان نرتكب كثيراً من الحماقات قبل ان نجد ذواتنا » ص ٩٠ .

« والتفت فيما حوله ، فتراءت له ، في موجة بشرية ، وجوه كثيرة يعرفها ، صبحي ، عدنان ، زهـير ، كامل ، ربيع ، صالح ، احمد ، سعيد ... بل فؤاد ... كلهم حوله وعشرات غيرهم عيون تطل منها ارواح ضائعة ، تبحث عن نفسها ، على مقاعد الجامعات وفي مقاهي الاحياء ، وبين اذرع النساء . وهو نفسه ، هذا الشيء الفارغ ، هذه الصدفة الجوفاء ، هذا العود من القش ، أليس هو اضيعهم نفساً واشردهم روحاً ؟» ص ٩٠ . وتعجبنا في هذه الجملة الاخيرة قول المؤلف : « بل وفؤاد » . فهو ايضاً شاب قلق ضائع ، وهو لا يملك بعد الروح الهادية التي ترشده ... غير انه اشد شعوراً من غيره بضرورة امتلاكها ... او ليس هذا هو واقع كثير من الشباب العرب الأقوياء : لديهم التطلع والتوق ، وليس لديهم تفاصيل هذا التطلع ومضمونه وطرق بلوغ ما فيه؟ ان كل ما لفؤاد من فضل على بطل الرواية هو انه جعله يؤكد تساؤله وبحثه وقلقه ، بعد ان كاد يشعر في قرب جانين او غيرها ، انه بلغ حال السكينة والاطمئنان التي لا تعرف الغواشي . او لم يخطر لباله مرة ان يخاطب جانين قائلاً : « وما يعنينا ان نعرف من نحن ؟ ألا يكفينا اننا كائنان يعيش أحدنا بالآخر ؟ ألا تشعرين انك تحققين الآن غاية وجودي ؟ وانا كذلك ؟ لماذا تبتعدين يا جانين ؟ لماذا تستشرفين الآفاق القاصية ؟ »

وهذا الاستشراف للآفاق القاصية هو الذي كان يحرقه في الواقع ، وما اتهم به جانين الا لأنه كان يصارعه في نفسه ، ثم جاء فؤاد فوطد اركانه ...

وهكذا يعود الفتى من ديار الغرب وهو قلق كما كان ، بل أشد قلقاً وتساؤلاً ... وكل ما في الأمر أن موضوع قلقه قد اتضح اكثر ، وأنه أصبح أغنى وأوجع ... انه يدرك الآن معنى المرأة وشأنها في تفتيح النفس ؛ ولكنه يدرك ما لم يكن يدركه من قبل تماماً ، وهو ان هذه التجربة ليست الا جزءاً من تجربة اوسع ، وانها لا تحمل قيمة في ذاتها ، بل تستمد قيمتها مما تثيره في النفس من رغبة في البحث وتوق الى اكتشاف معنى الذات والوجود ... وهل ثمة اقدر على اكتشاف معنى الحياة من احتكاك النفوس وامتزاج الأنا بالغير؟ وهل ينكر الدور الذي يلعبه الشخص الآخر في تكوين كيان الفرد وشعوره بشخصيته ؟

وبعد ، لقد آثرنا الوقوف عند جانب في الرواية نعتقد انه جوهرها ومحورها . وبهذا فاتنا ان نذكر جوانب اخرى ، بعضها يتصل ببراعة الأداء والفن القصصي ، وبعضها يتصل بالقدرة على تحليل الأحاسيس النفسية الدقيقة .. والمؤلف في هذا كله موفق . غير ان توفيقه لم ييسّر له الا لأنه قبض على مشكلة حية ، ووصف شيئاً عاناه ، فكان هذا الشيء الذي عاناه رائد اسلوبه وفنه ، وصائغ عباراته واشاراته ...

عبدالله عبدالدائم دمشق

مقال الأستاذ عيسى الناعوري

قبل ان يذهب سهيل ادريس الى فرنسا ، لنيل شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة السوربون ، كان قد اصدر ثلاث مجموعات قصصية ، هي : (أشواق – نيران وثلوج – كاهن نساء) ، وكنت اتابع أقاصيصه وكتاباته الأدبية في (الأديب) و (بيروت المساء) وغيرهما من الصحف اللبنانية ، فكنت اتلذذ بطلاوتها ورشاقة صياغتها ، واشعر باعجاب بموهبته القصصية ، وارى انه في هذا الفن الأدبي أديب موهوب ، يضع قدميه في الساحة بثبات ، ويعلن عن نفسه بجرأة .

ولكن سهيل ادريس ذاك لم يكن ذا رسالة ، ولا كان يكتب لهدف . فكنا نتقبل منه تلك الدمى الجميلة التي يصوغها ويتلذذ بابداعها ، فنمضي نحن ايضاً نشاركه في التلذذ بجمالها وحسن صياغتها . وكانت كلها دمى تعبر عن دعوة الجنس الفائرة في صدره ، وفي صدر كل شاب وفتاة في فورة الشباب المغتلم .

غير ان سهيل ادريس الآن شخص آخر جديد ، غير الذي عرفناه في السابق . لقد عاد من فرنسا يحمل شهادة الدكتوراه في الآداب . والى هنا ليس في الأمر شيء ذو بال ، فالشهادة لا تكفي وحدها لتغيير قيم الاشخاص واعتباراتهم . ولكن المهم في الأمر أنه عاد يحمل شعوراً جديداً « بأنه انسان جديد ، يعرف الذي يريده ، ويسعى اليه بثقة وايمان ... وانه مدعو الى حياة صراع يعيشها في بلاده .. وأنه يبدأ حياة النضال والمقاومة » من أجل امته العربية . (ص ٢٩٤ – الحي اللاتيني) .

لقد عاد يحمل رسالة ، ويدعو الى أهداف . واشترك لذلك في انشاء مجلة أدبية كبرى تحمل رسالته ، وتبث اهدافه التي تتلخص في ما دعاه (بالالتزام في الادب) ، الذي يقضي بتكريس الأدب والنشاط الفكري كله لخدمة الحياة العربية الجديدة ، والمجتمع العربي الجديد . وهي دعوة جميلة ونبيلة نباركها ونبارك معها كل من يحملها ويدعو اليها باخلاص .

واذن فليس من الممكن أن يمر القارىء بما يكتبه سهيل ادريس اليوم ، كما كان يمر بما كان يكتبه سهيل القديم من أقاصيص جنسية ، وما كان يصوغه من دمى جميلة لم يكن لها هدف أو رسالة ؛ وانما أصبح من حقنا الآن اذا رأينا مؤلفاته وكتاباته تنسجم مع دعوته الجديدة ، أن نهز يده بحرارة ، ونقول له : « امض على بركة الله وتوفيقه ، ونحن كلنا معك » ، واذا رأيناه يزيغ عن نهجها ، أن نلحق به ونهز كتفه بعنف ونقول له : «تعال يا عم ! ان الطريق التي تسلكها بنا الآن غير الطريق التي دعوتنا اليها ، فأي طريقيك الصواب ؟ » !

* * *

لقد اصدر سهيل ادريس اخيراً رواية كبيرة ، تقع في نحو ثلاثمئة صفحة ، دعاها باسم « الحي اللاتيني » ، حاول ان يرسم فيها صورة – من اختباراته الواقعية – لحياة الطلاب العرب في ما يسمونها « مدينة النور » . ومن الاخلاص للادب ان ننظر في هذه الرواية نظرة دراسة ونقد ، لا تعرف المجاملة لغير الحق ومبدأ الرسالة الأدبية . وليعذرنا الدكتور سهيل اذا لم يتفق نظرنا ونظره ، فهو الذي دعانا الى ان نقيس الاشياء بمقاييس الحقيقة ، لا بمقاييس المجاملة .

إن للنظر في عمل فني روائي – نظرة دراسة ونقد – اعتبارات متعددة ، اهمها ، في رأينا :

١ – الناحية الفنية : من حيث التصرف في خلق السياق والحوار والحوادث – وتوجيهها ببراعة ومقدرة .

٢ – التسلسل والانسجام ، وتأثير العبارة وجمالها وسلاستها ، وبراعة الحوار .

٣ – المواقف التصويرية والتحليلية والتأملية ، ومواقف الصراع العقلي والنفسي ، نتيجة الانفعالات المختلفة .

٤ – الأشخاص ، واعمالهم وسلوكهم وشخصياتهم ، ونوع تأثيرهم ومداه في نفس القارىء ، وبالتالي في سلوك المجتمع .

٥ – الحوادث والانفعالات ، وأهميتها واثرها .

٦ – الأفكار والمبادىء والأهداف التي تبرز في الرواية ، وتعين اتجاه صاحبها ومذهبه في الادب والفن والحياة .

والنصف الاول من هذه الاعتبارات الستة يدخل في دائرة الاطار الفني ، الذي يضفي على الرواية طلاوة تسيغها في نفس القارىء ، وتحبب اليه المضي في مطالعتها . وهي في الحقيقة المظاهر الشكلية للرواية ، بينما تتوقف روعة الرواية او تفاهتها على الاعتبارات الثلاثة الأخيرة ، في الدرجة الأولى .

اما الاعتبارات الثلاثة الأولى ، فقد كان سهيل موفقاً فيها وبارعاً الى حد بعيد ، منذ ان كان يصدر مجموعاته الصغيرة الاولى . وهي براعة فنية يستحق عليها الاعجاب الكبير .

وقارىء (الحي اللاتيني) لن يتمالك نفسه من الاعجاب الشديد بالمواقف التصويرية والتأملية ، ومواقف الصراع النفسي في الرواية ، كالذي في الفصل الثامن – ص ٧٨ الى ٨٦ – ومواقف اخرى متعددة ؛ وكذلك بعبارتها وانسجامها وحوارها ، وبالمقدرة القصصية التي يملك سهيل ناصيتها ، ويتصرف بها ببراعة كبيرة . ومن العبث ان نضرب الأمثلة على ذلك ، او نعين الصفحات ، فالمواقف الجميلة البارعة والشديدة التأثير ، كثيرة فيها ، ولعل من اشدها تأثيراً : رسائل جانين ، ومذكراتها ، وصراعه النفسي بعد الرسالة القاتلة التي ارسلها اليها من بيروت بطل الرواية الأول .

أما الاعتبارات الثلاثة الأخيرة ، فان مآخذنا عليها – في رواية الحي اللاتيني – غير قليلة ، وفي بعضها ما يستحق النقاش الشديد الطويل . ولذلك نجد أنفسنا مضطرين الى تفصيل الحديث فيها بغير قليل من الاسهاب ، وان يكن هذا الاسهاب سيرغمنا على ان نترك بعض الجوانب التي كنا نود ان نتعرض لها في هذه الدراسة ، واهمها جانبان : الأول : موقفه ، او مشاعره التي عبر عنها في الصفحتين (٨٨ و ٨٩) وغيرهما ، نحو الطلبة العرب في باريس . والثاني : المآخذ التي اخذها على الادب العربي الحديث ، واعتبرها نقصاً فيه ، كالذي ذكره في الصفحة ٩٤ ، وغيرها . فهذان الجانبان – على اهميتهما – نراهما اقل شأناً من الجوانب الاخرى التي سنتعرض لها فيما يلي :

* * *

ان اهم ما يلفت الانتباه في الرواية : شخصية بطلها الأول الذي دار الحديث عليه في كل الرواية بضمير الغائب . ثم يليه البطلة (جانين مونترو) وهي مع البطل الموضوع الأهم في الرواية . ثم تجيء شخصية الطالب السوري (فؤاد) ، كما تجيء ام بطل الرواية – وحبذا لو كان لهذا البطل اسم ليغنينا عن وصفه بالبطولة – وهناك شخصيات اخرى عديدة تافهة ، من اهمها شخصيات (صبحي) الطالب البارع في اقتناص النساء . و (عدنان) الطالب الذي يحرص على الصلاة والصوم وهو في قلب باريس ؛ و (ناهدة) التي وقف عليها المؤلف الفصل الثامن كله ، بمشاعر الحب والاعجاب والحنين المحرق ؛ ثم الفصل الاول من القسم الثالث – اكثر من نصفه – بمشاعر الكراهية والاستغراب والنفور ، بدون سبب حقيقي ... وجعل نهايتها معه الخذلان المؤلم ، بدون ذنب منها ، الا انها لم تستطع ان تكون له ما كانت له فتيات باريس ! ... وهناك ايضاً (فرنسواز) فتاة صديقه فؤاد ؛ وفتيات وفتيان آخرون في باريس خاصة .

واما المبادىء والحوادث والانفعالات ، فكثيرة ومتنوعة في الرواية ؛ ولكن لحصة المرأة – الاستمتاع بالمرأة ، ومطاردتها ، والتفكير بها – ما لا يقل عن تسعين بالمئة من مجموع حوادث الرواية وانفعالاتها وافكارها . وهذا ما سنعرض له بالمناقشة والتحليل فيما يلي :

* * *

ان القارىء يجد بين شخصيات الرواية البارزة ، شخصية واحدة تستأثر بحبه واعجابه كليهما . تلك هي شخصية الطالب السوري (فؤاد) ؛ ذلك الذي عاش في باريس بأخلاق « العربي الشريف » ، الواعي لمبادئه الاخلاقية ، وواجباته الوطنية والقومية كل الوعي ، بعكس فتى الرواية الاول تماماً ، وبعكس سائر رفاقه الآخرين .

والقارىء يكبر فؤاد كل الاكبار حين يرى انه قد صارح فتاته الفرنسية (فرانسواز) بقوله : « اننا مدعوون في المستقبل الى مواجهة كثير من قضايانا القومية التي لا تعني احداً سوانا . وانا لا اعتقد ان زوجة اجنبية تستطيع ان تعين زوجها في معاناة مثل هذه القضايا . انني اريد ان تكون زوجتي رفيقة حياتي حقاً ، بكل ما في الرفقة من معنى . ولئن تزوجت يوماً ، فلن اتزوج الا فتاة عربية . » (١٦٦ ، ١٦٧) . وقد رضيت هي بصداقته مع علمها بهذا . ثم يرى القارىء بعد ذلك ان « نزاعاً ضارباً قد نشب بين فرانسواز وفؤاد حول السياسة الفرنسية في افريقيا الشمالية ، فرأيا من الخير ان يفترقا ، وان يضحيا حبهما ، او ما كان يحسبانه حباً ، من اجل عقيدتهما. » (ص ٢٦٩) .

يرى القارىء ذلك فلا يستطيع ان يحبس اعجابه العظيم بهذه النهاية الرائعة لعلاقات فؤاد بفتاته الفرنسية ؛ ولا يستطيع ألا ان يتملىء حباً لفؤاد ، ويعتبره الطالب العربي المثالي الوحيد في (الحي اللاتيني) ، بينما يرى سائر الطلبة الباقين اقزاماً خاملاء تافهين .

والحقيقة أن المؤلف الذي استطاع ان يعقد كل هذا الحب لفؤاد في نفس القارىء ، ويجعل منه الصورة الجميلة الوحيدة في الرواية كلها ، لم يستطع أن يجعل القارىء يشعر نحو فتى الرواية الاول بغير الاشمئزاز والنفور ، لأنه جعل منه طالباً ضعيف الرجولة ، جباناً ، تافهاً في مبادئه ، مجرداً من النبل الخلقي ، ومن صحو الضمير القومي ، حتى إنه هو نفسه – فتى الرواية – لا يتمالك عن ان يدعو نفسه « بالنذل » ، و « الجبان » في الصفحة (٢٤٦) . وفي القسم الأخير من الرواية يشعر القارىء نحوه بالرثاء والشفقة والسخرية ، لأنه لم يستطع أن يكون رجلاً قط في مساق الرواية كلها .

ان فتى الرواية انما يغادر الشرق الى باريس تحت ستار الدراسة في بعثة على حساب وزارة المعارف اللبنانية ؛ ولكنه يعترف باصرار ، وفي مواطن متعددة من الرواية ، بأنه انما يهرب من الكبت والحرمان الجنسي ، لأجل البحث عن المرأة في باريس ... لأجل المرأة وحدها ! ... فما أتفه الغاية ، وما أحقر القصد :

« تبحث عنها ... عن المرأة ... تلك هي الحقيقة التي تنساها ، بل تتجاهلها . لقد أتيت الى باريس من أجلها ... » (ص ٢٣) . ثم في الصفحة (٢٦) وما يليها : « أجل ، شرقك ذاك لم يغرك بالهرب منه سوى خيال المرأة الغربية ، سوى اختفاء المرأة الشرقية في حياتك ، إلا ان تطل في بسمة لا تزيد الحرمان الا حرماناً ... وقد امسك هذا الخيال بذهنك ، فقاده الى البعيد البعيد الذي خلقت اطاره في وجدانك فصول من الكتب ، او صور من مغامرات صديق ... واصبحت يوماً فاذا كيانك كله ينزع الى تقريب هذا البعيد ، او الانتقال اليه ، على وجه التدقيق » .

ثم تبحث عن المرأة التي يريدها هذا الفتى المحروم ، والتي لأجلها سافر الى الغرب هرباً من وقدة الكبت والحرمان ... فاذا هي تطل عليه اولاً بصورة

مرغريت وليليان ... وهما فتاتان داعرتان ، يغريها بجلسة وكأس شراب ، وينحر فضيلته معها ، فيشعر اذ ذاك بأنـه يعيش حراً كما يشاء ... « وهذا الفرار الى باريس ، اما كانت تدفع اليه رغبة في التحرر من ذاك الجـو الضيق ، وسعي الى سوق حياة خاصة يشعر انها له ، انها حياة حميمة لا تعني احداً سواه ! » (ص ١٣٥)

و « الحياة الحميمة » هي الحياة الانطلاقية مع المرأة... ان «يريد المرأة ليعصرها عصراً ، ثم يلفظها كالنواة » (ص ٤٣) .

والقارىء يمضي من اول الكتاب الى الصفحة ٧٧ منه، فلا يجد الا ركضاً مجنوناً محموماً وراء المرأة : من فتاة السينما التي وعدته ثم اخلفت الوعد ، الى مرغريت، فالى ليليان ، ثم ... الى جانين مونترو . ويبرر فتى الرواية هذا المسلك في الصفحة (٧٢) بقوله : « كان على يقين من ان صداقته لصبحي ستصبح صداقة صحيحة خالصة(١)، يوم يلتقي مثله بفتاة تطلق مشاعره الحبيسة من عقالها ، وترد احاسيسه الى موضعهـا الطبيعي من قلبه وروحه » . وهو يؤكد في مكان آخر ان « الرجال في الشرق تموت مواهبهم وامكانياتهم بسبب ما يعانونه من حرمانهم من المرأة » .

وماذا بعد ؟

ليس غريباً ان نطيل الحديث عن المرأة هنا ، فحديث المرأة هو كل الكتاب، الى الصفحات الأخيرة جداً منه، حتى بعد ان يصحو الضمير القومي في فتى الرواية ، بعد صدمته العاطفية العنيفة مع فتاته . حتى ان القارىء حينما يصل الى حديث الوطنية وصحو الضمير في فتى الرواية – من الصفحة ٢٦٣ فصاعداً – يشعر شعوراً عميقاً بأن هـذا الحديث قد حشر في آخر الرواية حشراً ناشزاً ، وان صحو الضمير لم يجىء الا بطريقة مفتعلة ليعوض به فتى الرواية عن « حرمانه » الجديد القاسي من المرأة في الغرب ، وليغطي بـه أثر الصدمة العاطفية في نفسه ، ثم ليحول شعور القارىء نحوه من الاحتقار الى الاعجاب ، فلم يوفق ، ولم يفز بغير الشفقة والسخرية ، فقد جاء حديثه هناك بشكل غير طبيعي ، وخال من الحرارة والصدق والتدفق ، كبقية فصول الكتاب .

قلت « الصدمة العاطفية » ، وحقيقة هذه الصدمة هي من العوامل التي تجعل القارىء ينفر كل النفور من جبن فتى الرواية ونذالته، كما ينفر هو نفسه من نفسه ، وكما ينقم هو نفسه على نفسه حين يثور في داخله الصراع العاطفي، على اثر الرسالة التي حطم بها رجولته ، كما حطم بها حياة فتاته البريئة .

لقد أحب في باريس فتاة اسمها (جانين مونترو) ، استسلمت اليه بثقـة مطلقة ، وكشفت له الستار عن حياتها الماضية وأخلصت له كل الاخلاص. وفي علاقته بها يقول في الصفحة (١٥٩) وما بعدها :

[وكان الليل مملكتهما الاثيرة ، يركنان اليه ليتلذذا فيه بالدفء والظلام والحب ، هذا الذي لم يعرف من قبل الا احد شطريه ، فاما النشوة الروحية وحدها ، وإما اللذة الجسدية وحدها، بل هو لم يعرف اي الشطرين الا في اسوأ اشكاله : إما كبت وانفـلاق وتآكل ، وإما انانية وحيوانية وانحطاط . ولم يكن يتصور ان بوسع انسان ان يدرك ، الى جانب انثى، اللذتين كلتيهما، كما ادركهما الى جانب جانين... وكانت هي من رهافة الانوثة بحيث كانت تعي كيف تعالج الاخذ والعطاء ، وكيف تدفع الضجر والملل بتغايب احدى اللذتين في الوقت المناسب ... وكان قد مضى عليهما اربعة ايام وهما في عالم شبه معزول ، اذ ايقظته هي ذات ساعة : – لقد آن لنا ان نعود الى عالم الناس ، الى اشيائنا اليومية الصغيرة ! ان المؤسف اننا حيوانات اجتماعية !]

وتمضي العلاقات بينهما على هذه الوتيرة شهوراً طويلة ، يعود بعدها الفتى الى بيروت في اجازة الصيف لزيارة اهله . وهناك يتلقى منها رسائل متعددة ، بينها رسالة تذكر فيها ان في احشائها جنيناً منه لا تعرف ماذا تفعل بـه ، وهي تنتظر مشورته ، لأن ليس من حقها ان تتصرف بأمره بدون استشارة شريكها فيه ... وتطلع امه على الرسالة قبل وصولها اليه ... وبتأثير عوامل الخجل من امه ، والضعف امام عتابها ... لم يسعه الا ان يجيب على الرسالة برسالة قصيرة ، تبرأ الرجولة والاخلاق من كل حرف فيها : إذ يتهم فتاته ، التي يعرف براءتها حق المعرفة ، بأن الجنين ليس ابنه ... ويقول : [اما علاقتنا نحن الاثنين ، فأحسبك لا تشكين بانها كانت بريئة ! ...]

كانت بريئة ؟ ! وماذا يعني الوصف المتقدم كلـه اذا كانت « النشوة الروحية » و « اللذة الجسدية » والسرير الواحـد الذي يضمهما ليالي متلاحقة ... كلها علاقات بريئة ؟ !

والقارىء يجد ان الصراع النفسي الذي تلا تلك الرسالة ، والاعـذار والمبررات التي كان فتى الرواية يحاول ان يقنع بهـا نفسه كذباً وايهاماً ، وتسميته نفسه بالجبان والنذل ، ثم عودته الى باريس قبل الموعد ، وبحثه عن جانين ، ثم التقاءه بها في حالتها السيئة ، وعرضه عليها الزواج تكفيراً عن إثمه نحوها ؛ كل ذلك اصبح بارداً لا قيمة له ، إذ فقد كل حرارته ، بعد ان سمح الفتى لنفسه بكتابة تلك الرسالة الحقيرة ، وهو يعلم حق العلم انه يخدع نفسه ويخدع ضميره بها. ويزداد احتقار القارىء للفتى إذ يقرأ ردّ جانين على رسالته تلك ، وهو : [شكراً ؛ سأواجـه مصيري بشجاعة – جانين] (ص ٢٥٣) – ثم حين يراها ترد على عرضه الزواج عليها بأن تهرب من وجهه ، وتكتب اليه رسالة تفيض بالنبل وكبر القلب وسمو الروح ، تقول له فيها : [إن دنياك التي تحلم بها ، اوسع واعظم من ان يستطيع الثبات فيها شخص ضعيف مثلي . انك الآن تبدأ النضال ، اما انا فقد فرغت منه، ومات حس النضال في نفسي ... فامض قدماً يا حبيبي ، ولا تلتفت الى ما وراءك... دعني هنا اتابع طريقي حتى النهـاية : وعد انت يا حبيبي العربي الى شرقك البعيد الذي ينتظرك ، ويحتاج الى شبابك ونضالك] (٢٩٤) .

صفات متناقضة : نبل ووفاء وسمو في الفتاة الغربية ، وغدر وجبن وحقارة في الفتى الشرقي ... ذلك ما تقدمه لنا رواية (الحي اللاتيني) ، او عـلى الأصح ذلك ما يخرج به القارىء المتمعن في رواية (الحي اللاتيني) . اما حياة الطلبة العرب هناك ، واما حياة الحي اللاتيني نفسه ، فشيء تافه جداً ، بعكس ما كان يتوقعه القارىء من الرواية، ومن اختبارات المؤلف الواقعية الطويلة في باريس .

* * *

الى هنا ولم ننته بعـد ، فما زال في الرواية موضوع يستوجب النقاش الطويل ؛ ذلك هو رأي المؤلف في المرأة الشرقية ، ودعوته الصريحة المتحمسة الى (هـدم الجدار الذي يفصل بينها وبين الرجل) ، لكي (تنطلق مشاعره الحبيسة من عقالها ، وترد احاسيسه الى موضعها الطبيعي) ثم لكي تتفتح مواهبه وامكانياته المكبوته ...

ان الفتى الذي هرب من الحرمان والكبت الى باريس لأجل المرأة ، ارانا في روايته انه قـد وجد هناك المرأة التي يبحث عنها ، وانه عاش معها « الحياة الحميمة » التي ارادها. ولكننا لم نجد في المرأة التي وجدها هناك سوى وسيلة استمتاع عابر ، مباحة لكل عابر سبيل ، فمن مرغريت ، الى ليليان، ثم الى جانين نفسها –الحبيبة الوفية– ، فالى فرانسواز –فتاة صديقه فؤاد–...

– التتمة على الصفحة ٧٩ –

(١) ما اثقل هذه الصادات الست المتلاحقة .

«الحي اللاتيني» أيضاً...

التتمة من الصفحة ٠ :

ترى اية واحدة من هؤلاء يريد المؤلف ان يجعل من بنات بلاده العربيات ، شبيهات بها ، يقدمن المتعة (الجسدية والروحية) للشبان ، وهن يعلمن انهن اشباح عابرة في حياتهم ، وانهم اشباح عابرة في حياتهن ؟! وانهن سيصبحن بعدهم (فتيات ضائعات) كما قالت جانين عن نفسها - ؟!

وبصراحة ... ان في جامعات بيروت الوفاً من الشبان الذين يبحثون عن المتعة نفسها التي كان فتى (الحي اللاتيني) واصحابه يبحثون عنها ، فهل يرضى المؤلف ان تكون فتيات بيروت هن ، ما كانت له ولصديقه فؤاد خليلتاهما جانين وفرانسواز ، او ما كان الفتيات الأخريات لسامي ، وصبحي ، واحمد ، وغيرهم من رفاقه هناك ؟! او بهذا يستطيع طلاب الجامعات في بيروت مثلاً ان يكشف كل منهم - وهو يستمتع بأجساد الفتيات ، او باجسادهن وارواحهن معاً - عن جوانب عبقريته الضائعة ؟!

و (ناهدة) التي كرس لها من روايته فصلا كله حنين ورقة وحب ، حينما جعل الفتى يذهل عن نفسه وعن دنياه وهو واقف في نفق المترو يستمع الى عازف الاكورديون : أليس موقف هذا الفتى نفسه منها عند عودته الاولى الى بيروت ، مدعاة الى كثير من الاستغراب والانتقاد ؟!

لقد رأى فيها اذ ذاك (الفتاة الشرقية ، الفتاة العربيــــة ، تتراجع امام الشاب -- اي شاب ، عربياً كان ام اجنبياً امام (الرجل) ، وعيناها طامحتان بالخوف منه . رواسب تجمعت اجيالاً في هذه الخطوة ... وقد ظل برهة طويلة ينظر الى ناهدة فلا يراهـــا هي ، وإنما يرى آلافاً وآلافاً من هاتيك العربيات المتناثرات في ارجاء الوطن العربي الكبـــير ، يقيم الحذر بينهن وبين الرجل حواجز صفيقة يستحيل معها كل تعاون مثمر ، وكل مشاركة مجدية) (ص ٢٣٤) .

والقارىء يتساءل بعد هـــذا الحديث الصريح : ترى اي تعاون مثمر ، واية مشاركة مجدية كانت بين فتى الرواية وجانين ، او بينه وبين مرغريت وليليان في باريس ، غير المشاركة في الرذيلة والخطيئة ؟ وهل كان ينتظر ان تصفح عينا الفتاة العربية بالاستسلام الى الشاب اي شاب ، عربياً كان ام اجنبياً - بدلاً من ان تصفحا بالخوف والحذر من مثل المصير الذي اوقع فيه الفتاة المسكينة البريئة (جانين مونترو) ، تلك التي يذكرها في مجال المقابلة بينها وبين ناهدة (في الصفحة ٢٢٥) فيقول :

[ولكن جانين ، الم يحب روحها عبر جسدها ، وجسدها عبر روحها ؟ تلك كانت تعرف قيمة الروح لأنها كانت تعرف قيمة الجسد! ...] ومع ذلك فهو لم يتخذ منها اكثر من خليلة لمتعة قصيرة عابرة !!

ووالدة فتى الرواية .. تلك الوالدة المخلصة في امومتها ، والعاملة لسعادة ابنها ، أليس من المؤسف جداً ان يحاول الفتى تلوينها استجابة لدعوتـــه الجديدة ، او تمشياً مع رغباته الجنسية العارية ، التي كانت تود لو لم يستجب لها الى الحد الذي وصل اليه مع جانين ؟!

الذي نرجوه ان لا تكون هذه النظرة الى المرأة جزءاً من رسالة الأديب الجديد في سهيل ادريس ، التي عاد يحملها الى امته العربية ؛ فهي ليست نظرة نظيفة ، بلا ريب ، ولا هي رسالة انهاض واسعاد لهذا الجزء الحي من الامة ومن الانسانية ، الذي هو المرأة .

ان المرأة التي نريد لها ان تشارك الرجل في نهضة امتنا العربية ، لايمكن ان نرضى لها بان تكون وسيلة استمتاع عابر (للرجل) - لكل شاب ، عربياً كان ام اجنبياً ، ولا يجوز ان نرضى لها بتلك هذه الوظيفة الحقيرة ، ولكن لها وظيفة اسمى ، هي ان تخلق الرجل الصالح ، في البيت الصالح . والذي يقدس الامومة في المرأة ، لا يرضى لأمومتهـــا المقدسة بأن تقضي لانات الهوى لعابري السبيل ، بدون امل في ان تبني البيت الذي نحن اليه كل امرأة ، ويحتاج اليه المجتمع الصحيح .

وبعد فاذا كانت رواية (الحي اللاتيني) ناجحة جداً من حيث الفن الروائي ، فانها من حيث الرسالة الادبية الاجتماعيـــة مجهود منحرف ، فهي لاتزيد على كونها تعبيراً عن نزعات جنسية غير مقيدة . حتى ليغلب على ظن القارىء ان المؤلف إنما وضعها ليعوض عن النقص الأدبي الذي انتقده في الصفحة (٩٤) من روايته : في مجـــال التعليق على مسرحية (الكوخ الصغير لأندريه روسين) التي قال فيها صديقـــه فؤاد : (لا ريب في ان هذه المسرحية لا اخلاقية ؛ فهي لا تخلف لدى المشاهد اي استنكار للخيانة الزوجية التي يدور حولها الموضوع) ، فيجيب فتى الرواية على ذلك قائلاً : (أليس ادباؤنا مقصرين في هذه الناحية ؟ الا تراهم يتمادون في آثارهم من إثارة كثير من المشكلات التي تمس حياتنا ، خشية من ثورة حماة التقاليد ؟) (ص ٩٤) .

لقد كانت رواية (الحي اللاتيني) (صورة حياة) ، ولكنها لاتمكن ان تكون (رسالة حياة) للمجتمع العربي الجديد الذي نريـــده قوياً خالصاً متماسكا . فرسالة الادب غير النزعات الجنسية العارية المتفلتة من القيود . وانا اذا كنت معجبا بموهبة سهيل ادريس القصصية ، فاني لأشعر ببالغ الاسف اذ ارى هذه الموهبة الجميلة تنصرف الى غير وجهتها الصحيحة ، على هـــذا الشكل ، ورغم ما يدعو اليه سهيل في مجلة (الآداب) من وجوب صرف النشاط الفكري لخدمة المجتمع العربي ، ومعالجة نواحي النقص فيه ، لتحريره من العيوب والمساوىء التي تحول دون نهضته وعزته .

عمان **عيسى الناعوري**

كنوز القصص الانساني العالمي

سلسلة جديدة تعرف القارئ العربي الى روائع الآثار القصصية العالمية ذات النزعة الانسانية

اختارها ونقلها الى العربية
منير البعلبكي

صدر منها		ق . ل
١ - كوخ العم توم (الطبعة الثانية)	هريت ستاو	٢٠٠
٢ - اسرة آرتامونوف (الاول)	لمكسيم غوركي	٣٠٠
٣ » » (الثاني)	لمكسيم غوركي	٢٥٠
٤ المواطن توم بين (الاول)	هاوارد فست	١٥٠
٥ - المواطن توم بين (الثاني)	» »	٢٠٠
٦ ستة وعشرون رجلاً وفتاة واحدة	لمكسيم غوركي	١٠٠
٧ حكايات من ايطالية	لمكسيم غوركي	١٠٠
٨ شارع السردين المعلب	لمكسيم غوركي	١٥٧